

الحلقة الرابعة  
القَصَصُ الدِّيْنِيّ  
العَرَبُ فِي أَوْرُبَا

طَائِفَتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ

عبد الحميد جودة السحار



خرج طارق بن زياد في سبعة آلاف من  
المسلمين ، جلّهم من البربر ، في أربع سفن ، جهّزها  
يُليانُ لينتقمَ من رُدريك « لُدريق » ملك الأندلس ،  
الذى اعتدى على ابنته فلورندا ؟

انطلقت السفن تحملُ فوارسَ صناديد ، يتوقون  
للقتال ، ويطمعون فيما في أيدي الأندلسيين ،  
ويرجون الثواب ، فقد كانوا خارجين في سبيل  
الله ، لرفع كلمته ، وإعلاء دينه ، وتوسيع رقعة  
الإسلام والمسلمين .

ونام طارق في مركبه ، فرأى في منامه النبيَّ  
ﷺ ، وحوله المهاجرون والأنصار ، قد تقلّدوا  
السيوف ، وتنكبوا القسي ، يقولُ له :

- يا طارق : تقدّم لشأنك .

ونظرَ إليه ، وإلى أصحابه فألفاهم قد دخلوا  
الأندلس قُدَّامَه ؛ فهبَّ من نومه مُستبشِراً ، وبشَّرَ  
أصحابه ، وثابتَ إليه نفسه ، ثقةً بُبشِراه ، فقويَت  
روحُه ، ولم يشك لحظةً في الظَّفَر .

وحطَّ بجبل طارق المنسوبِ إليه ، ولم تزل المراكبُ  
تعودُ حتَّى توافي جميعُ أصحابه عنده ، وتأهبَّ لشنِّ  
الغارة . وإذا بخبر نزوله إلى البرِّ يبلغُ لُذريق ،  
فيتأهبُّ لملاقاة الغُزاة ويبادرُ في جموعه ؛ وهم نحوُ  
مِئة ألف ، ذوى عُدَّة وعدَد ، وينطلق ليقاتل الذين  
جاءوا يقاتِلونه في عُقرِ داره .

رأى طارقُ جيشَ الأندلس ، فكتب إلى موسى  
بأنه قد زحفَ عليه لُذريق ، بما لا طاقة له به ، فبعثَ  
له موسى خمسةَ آلاف من المسلمين ، فصار جيشُ  
طارق اثني عشر ألفاً من الأبطال الصناديد .

وأصاب طارق عجزاً من أهل البلاد ، راح  
يسألها عن أحوال القوم ؟ فقالت له فى بعض  
قولها :

- إنه كان لها زوجٌ عالمٌ بالحدّثان ، فكان يحدثهم  
عن أمير ، يدخل إلى بلدهم هذا ، ويغلبُ عليه ،  
ويصفُ من نعتِه أنه ضخْمُ الهامة ، وأنتَ كذلك :  
وأنَّ فى كَتِفِه اليُسرى شامة ، عليها شعرٌ ، فإنَّ  
كانت بك هذه العلامة ، فأنت هو .

فكشفَ طارقُ ثوبه ، فإذا بالشَّامة فى كَتِفِه ،  
فاستبشَرَ بذلك ، وراح يتأهَّبُ للمعركة التى  
ستفصلُ بينه وبين لُذريق .



أحرق طارق سفينه ، حتى يئأس جنوده من  
 العودة ، وحتى يُقاتلوا في استبسال ، دون أن يخطر  
 الفرار لهم على بال ، وقام في أصحابه ، يحثهم على  
 الجهاد ، ويرغبهم فيه ، فحمد الله ، وأثنى عليه ثم  
 قال :

– « أيُّها الناس ! أين المفر ؟ البحر من ورائكم ،  
 والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق  
 والصبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة ، أضيّع من  
 الأيتام ، في مأذبة اللئام . وقد استقبلكم عدوكم  
 بجيشه ، وأسلحته وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر  
 ( أى معقل ) لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم  
 إلا ما تخلصونه من أيدي عدوكم . وإن امتدت

بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تُنجزوا لكم أمراً ،  
 ذهبت رِيحُكم ، وتعوّضتِ القلوبُ من رُعبها منكم ،  
 الجرأة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خِذلان هذه  
 العاقبة من أمركم ، بمنأزّة هذا الطّاغية ، فقد ألقت  
 به إليكم مدينته الحصينة ؛ وإنّ انتهاز الفرصة فيه  
 لممكن ، إنّ سَمَحْتُمْ لأنفسكم بالموت . وإنّي لم  
 أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على  
 خُطّة أرخص متاع فيها النفوس إلا أبداً بنفسى .  
 واعلموا أنّكم إنّ صبرتم على الأشقّ قليلاً ،  
 استمتعتم بالأرّفه الألدّ طويلاً ، فلا ترغبوا بأنفسكم  
 عن نفسى ، فما حظكم فيه بأوفر من حظى ، وقد  
 بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ،  
 من بنات اليونان ، الرّافلات فى الدرّ والمرجان ،  
 والحلل المنسوجة بالعقيان ( الذهب ) ، المقصورات  
 فى قصور الملوك ذوى التيجان ، وقد انتخبكم  
 الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين ، من الأبطال



عُزْبَانَا ، وَرَضِيْكُمْ لِمُلُوكِ هَذِهِ الْجَزِيْرَةِ أَصْهَارًا  
وَأَخْتَانَا ، ثِقَّةً مِنْهُ بَارْتِيَا حِكْمِ لِلطَّعَانِ ، وَاسْتِمَا حِكْمِ  
لِمُجَالِدَةِ الْأَبْطَالِ الْفُرْسَانِ ، لِيَكُونَ حِظُّهُ مِنْكُمْ ثَوَابَ  
اللَّهِ عَلَى إِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ ، وَإِظْهَارِ دِينِهِ بِهَذِهِ الْجَزِيْرَةِ ،  
وَلِيَكُونَ مَغْنَمُهَا خَالِصَةً لَكُمْ مِنْ دُونِهِ ، وَمِنْ دُونِ  
الْمُؤْمِنِينَ سِوَاكُمْ . وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ إِنْجَادِكُمْ ، عَلَى  
مَا يَكُونُ لَكُمْ ذِكْرًا فِي الدَّارَيْنِ .

وَاعْلَمُوا أَنِّي أَوَّلُ مُجِيبٍ إِلَى مَا دَعَوْتُكُمْ ، وَإِنِّي  
عِنْدَ مُلْتَقَى الْجَمْعَيْنِ ، حَامِلٌ بِنَفْسِي عَلَى طَاغِيَةِ الْقَوْمِ  
لِذَرِيْقٍ ، فَقَاتِلْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . فَاحْمِلُوا مَعِيَ ، فَإِنْ  
هَلَكْتُ بَعْدَهُ ، كَفَيْتُكُمْ أَمْرَهُ ، وَلَمْ يُعْوزْكُمْ بَطْلٌ  
عَاقِلٌ تُسْنِدُونَ أُمُورَكُمْ إِلَيْهِ ، وَإِنْ هَلَكْتُ قَبْلَ  
وَصُولِي إِلَيْهِ ، فَاخْلُفُونِي فِي عَزِيمَتِي هَذِهِ ، وَاحْمِلُوا  
بِأَنْفُسِكُمْ عَلَيْهِ ، وَاکْتَفُوا الْهَمَّ مِنْ فَتْحِ هَذِهِ الْجَزِيْرَةِ  
بِقِتْلِهِ ، فَإِنَّهُمْ بَعْدَهُ يُخَذِّلُونَ . »

أقبل لُذْرِيْق وهو على سريْره ، وقد حُمِلَ على  
رأسه رِواقٌ دِياجٌ يُظَلِّلُه ، وهو مُقْبِلٌ فى غِيابة من  
البُنودِ والأعلام ، وبين يده المقاتِلَةُ والسَّلاح ، وأقبل  
طارقٌ فى أصحابه عليهم الزَّرْد ، ومن فوق  
رءوسهم العِمامُ البيض ، وبأيديهم القِسيُّ العِربيَّة ،  
وقد تقلَّدوا السُّيُوف ، واعتقلوا الرِّماح ، فلمَّا نظر  
إليهم لُذْرِيْق ؛ تذكَّرَ تِمثالَ الرَّجُلِ البَربريِّ ، الَّذي  
رآه فى بيتِ الحِكمة ، يومَ أَصرَّ على فَتحِ ذلك  
البيت ، الَّذي كان كلُّ ملكٍ يضعُ ببابه قُفْلاً يومَ  
تتويجه ، فقال :

— إِنَّ هَذِهِ الصُّوْرَ هِيَ الَّتِي رَأَيْنَاهَا فى بَيْتِ  
الحِكمة .



فداخله منهم رُعب ، واستولى عليه خوفٌ شديد . ونظر طارق ورأى الملك في أبهته ، فقال :  
- هذا طاغيةُ القوم ، إني حاملٌ عليه ، فاحملوا معي .

وبدأ الهجُوم ، وراح طارق يلعب بالسَّيف ، ويشقُّ طريقه إلى لُذريق ، وحمل أصحابه معه ، ففترقتِ المقاتلةُ من بين يدي لُذريق ، فخلص إليه طارق ، وضربه بالسَّيف على رأسه ، فقتله على سريرِه . فلما رأى أصحابه مَصْرَعَ صاحبهم ، دبَّ الذُّعْرُ في قلوبهم ، وراحوا يُؤلُّون الأدبار ، ولاح النَّصْرُ للمسلمين .

وقُتِلَ خلقٌ كثيرٌ ، ووقعَ في الأسْرِ خلقٌ كثيرٌ ، وجمع المسلمون الغنائم ، وتسامعَ النَّاسُ من أهلِ بَرٍّ العُدوةَ بالفتح على طارق بالأندلس ، وسعةُ الغنائم فيها ، فأقبلوا نحوه من كلِّ وجه ، وخرقوا البحرَ

على كلِّ ما قَدَرُوا عليه من مَرَاكِبَ وقواربَ  
صغيرة ، فلَحِقُوا بطارق : وارتفع أهلُ الأندلس عند  
ذلك إلى الحُصُون والقلاع ، وتهاربوا من السَّهل  
ولَحِقُوا بالجبال .

وأقبلَ طارقٌ يفتحُ البلاد ، حتَّى إذا بلغَ مدينةً  
حصينةً امتنعتْ عليه ، حاصرها . وفي ذاتِ ليلة ،  
خرجَ إلى النهرِ لبعضِ حاجته ، فصادف رجلاً من  
رجالِ المدينة هناك : فوثبَ عليه طارقٌ فى الماء ،  
فأخذه وجاء به إلى المعسكر ، وراح يسأله عن المدينة  
وعن أهلها ؟ فإذا به يعترفُ بأنَّه أميرُ المدينة .  
وصالحه طارقٌ على ما أحبَّ ، وضربَ عليه  
الجزية ، وخلَّى سبيله .



قذف الله الرُّعبَ في قلوبِ الأندلسيين ، لما  
 رأوا طارقاً يُوغِلُ في البلاد ، وكانوا يحسبونَه راغباً  
 في المَغْنَمِ ، عاملاً على القُفول ، فسُقِطَ في أيديهم ،  
 وتطايروا عن السُّهول إلى المعازل ، وصعدَ ذو القُوَّةِ  
 منهم إلى عاصمةِ مُلكِهم طليطلة ، فقال يُلِيانُ  
 لطارق :

— قد هزمتَ القومَ ، فانطلق لعاصمتِهِم : وهؤلاء  
 أدلاءُ من أصحابي مَهْرَةٌ ، ففرِّقْ جيوشك معهم في  
 جهاتِ البلاد ، واعمدْ أنت إلى طليطلة حيث  
 معظمُهم ، فاشغلِ القومَ عن النظر في أمرِهِم ،  
 والاجتماع إلى أولى رأيِهِم .

وعملَ طارقُ بنصيحةِ يُلِيانِ ، ففرِّقَ جيوشَه مع

أَدِلَاءَ مِنْ أَصْحَابِ يُلْيَانَ ، بَعَثَ مُغِيثًا « الرُّومِيَّ » ،  
مَوْلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، إِلَى قَرْطَبَةَ ، وَكَانَتْ مِنْ  
أَعْظَمِ مَدَائِنِهِمْ ، فِي سَبْعِ مِائَةِ فَارَسٍ ، فَمَا كَانَ فِي  
جَيْشِ طَارِقٍ رَاجِلٌ بَعْدَ أَنْ رَكِبَ الْمُسْلِمُونَ خَيُْولَ  
أَهْلِ الْبِلَادِ ، وَبَعَثَ جَيْشًا آخَرَ إِلَى مَالِقَةَ ، وَآخَرَ إِلَى  
غَرْنَاطَةَ ، وَسَارَ هُوَ فِي مَعْظَمِ النَّاسِ يُرِيدُ طَلَيْطَلَةَ .  
أَرْسَلَ الْأَدِلَاءَ ، فَأَمْسَكُوا رَاعِي غَنَمٍ ، فَسُئِلَ عَنْ  
قَرْطَبَةَ ؟ فَقَالَ :

— رَحَلَ عَنْهَا عِظْمَاءُ أَهْلِهَا إِلَى طَلَيْطَلَةَ ، وَبَقِيَ فِيهَا  
أَمِيرُهَا فِي أَرْبَعِ مِائَةِ فَارَسٍ مِنْ حُمَلَتِهِمْ ، مَعَ ضُعْفَاءِ  
أَهْلِهَا .

وَسُئِلَ عَنْ سُورِهَا ؟ فَقَالَ :

— إِنَّهُ حَصِينٌ عَالٍ فَوْقَ أَرْضِهَا . إِلَّا أَنَّ فِيهِ ثَغْرَةً .  
وَوَصَفَهَا لَهُمْ .



وجاء الليل ، وأقبلوا نحو المدينة ، ووطأ الله لهم  
أسباب الفتح ، بأن أرسل السماء بردا ، أخفى  
ودقه حوافر الخيل ، وأقبل المسلمون رؤيدا ، حتى  
عبروا نهر قرطبة ليلا ، وقد أغفل حرس المدينة  
احتراس السور ، فلم يظهروا عليه ، ضيقا بالذى  
نالهم من المطر والبرد .

فترجل القوم حتى عبروا النهر ، وليس بين النهر  
والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعا أو أقل ، وأرادوا  
التعلق بالسور ، فلم يجدوا متعلقا ، ورجعوا إلى  
الراعى ، ليدهم على الشجرة التى ذكرها ، فأراهم  
إياها ، فإذا من الصعب الصعود إليها ، إلا أنه كانت  
فى أسفلها شجرة تين مكنت أفنانها من التعلق بها ،  
فصعد رجل من أشداء المسلمين فى أعلاها ، ونزع  
رجل عمامته ، فناوله طرفها ، وأعان بعض الناس  
بعضا حتى كثروا على السور ، وركب قائد

المسلمين ، ووقف من خارج ، وأمر أصحابه المرتقين  
للسُّور ، بالهجوم على الحرس ، ففعلوا ، وقتلوا نفراً  
منهم ، وكسروا أقفال الباب وفتحوه ، فدخل  
المسلمون يُكبرون ، واستولوا على المدينة الحصينة ،  
ولكنَّ مَلِكها وبعضَ حاشيته ، انطلق إلى الكنيسة  
وتحصَّن بها .



بَقِيَ الْمَلِكُ فِي الْكَنِيسَةِ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ، حَتَّى ضَاقَ  
 مِنْ ذَلِكَ قَائِدُ الْمُسْلِمِينَ ، فَتَقَدَّمَ مِنْ أَسْوَدَ مِنْ عِيْلِهِ  
 اسْمُهُ رَبَّاحٌ ، وَكَانَ يَجِيذُ الْإِخْتِفَاءَ ، وَأَخْبَرَهُ أَنْ يُحَاوَلَ  
 الْقَبْضَ عَلَى وَاحِدٍ مِنَ الْقَوْمِ ، يَعْرِفُ مِنْهُ أَخْبَارَهُمْ .  
 انْطَلَقَ الْعَبْدُ حَتَّى اقْتَرَبَ مِنَ الْكَنِيسَةِ ، وَدَعَا  
 ضَعْفُ عَقْلِهِ إِلَى أَنْ يَصْعَدَ فِي بَعْضِ الْأَشْجَارِ الْقَرِيبَةِ  
 مِنَ الْكَنِيسَةِ ، لِيَجْنِيَ مَا يَأْكُلُهُ ؛ فَبَصُرَ بِهِ أَهْلُ  
 الْكَنِيسَةِ ، وَشَدُّوا عَلَيْهِ ، فَأَخَذُوهُ فَمَلَكُوهُ ، وَهُمْ فِي  
 ذَلِكَ هَائِبُونَ لَهُ ، مُنْكَرُونَ خَلْقَهُ ، إِذْ لَمْ يَكُونُوا  
 عَايِنُوا أَسْوَدَ قَبْلَهُ ، فَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ ، وَكَثُرَ لَغَطُهُمْ  
 وَتَعَجُّبُهُمْ مِنْ خَلْقِهِ ، وَحَسَبُوا أَنَّهُ مَصْبُوعٌ أَوْ مَطْلِيٌّ  
 بَعْضُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُسَوَّدُ ، فَجَرَّدُوهُ وَسَطَ جَمَاعَتِهِمْ ،

وأدْنُوهُ إِلَى الْقَنَاةِ الَّتِي مِنْهَا كَانَ يَأْتِيهِمُ الْمَاءُ ، وَأَخَذُوا  
فِي غَسَلِهِ وَتَدْلِيكِهِ بِالْحَبَالِ الْحُرْشِ حَتَّى أَدْمَوْهُ ،  
فَاسْتَغَاثَهُمْ ، وَأَشَارَ إِلَى أَنَّ الَّذِي بِهِ خِلْقَةٌ مِنْ بَارئِهِمْ  
عَزَّ وَجَلَّ ، فَفَهِمُوا إِشَارَتَهُ ، وَكَفَّوْا عَنْهُ وَعَنْ  
غَسَلِهِ ، وَاشْتَدَّ فَرْغُهُمْ ، وَمَكَثَ فِي إِسَارِهِمْ سَبْعَةُ  
أَيَّامٍ لَا يَتْرَكُونَ التَّجْمُّعَ عَلَيْهِ ، وَالنَّظَرَ إِلَيْهِ .

وَفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ غَافَلَهُمْ وَفَرَّ ، وَانْطَلَقَ إِلَى قَائِدِ  
الْمُسْلِمِينَ ، وَعَرَّفَهُ بِالَّذِي أَطَّلَعَ عَلَيْهِ مِنْ شَأْنِهِمْ ،  
وَمَوْضِعِ الْمَاءِ الَّذِي يَنْتَابُونَهُ ، وَمِنْ أَىِّ نَاحِيَةٍ يَأْتِيهِمْ ،  
فَأَمَرَ أَهْلَ الْمَعْرِفَةِ بِطَلَبِ تِلْكَ الْقَنَاةِ ، فِي الْجِهَةِ الَّتِي  
أَشَارَ إِلَيْهَا الْأَسْوَدُ ، حَتَّى أَصَابُوهَا ، فَقَطَعُوهَا عَنْ  
جَرِيئِهَا إِلَى الْكَنِيسَةِ ، وَسَدُّوا مَنَافِذَهَا ، فَلَمْ يَسَعْ مِنْ  
فِيهَا إِلَّا التَّسْلِيمَ . وَلَكِنَّ الْمَلِكَ غَافَلَ الْقَوْمَ ، وَفَرَّ  
وَحْدَهُ ، يَرِيدُ طَلِيطَةَ .